



انتبهت ذات يوم وأنا أقود سيارتي إلى واحدة من القواعد النفسية والأخلاقية العامة التي يشترك فيها أكثر الناس: إذا حجزتني سيارة بطيئة أمامي قلت: يا لهذا السائق البليد! وإذا تجاوزتني سيارة مسرعة من ورائي قلت: يا له من سائق متهور! إننا نعتبر أنفسنا "النموذج" الذي يُفاس عليه سائر الناس، فمن زاد علينا فهو من أهل الإفراط ومن نقص عنا فهو من أهل التفريط.

إذا وجدتَ من ينفق إنفاقك فهو معتدل كريم، فإذا زاد فهو مسرف وإذا نقص فهو بخيل، ومن يملك جرأتك في موافق الخطر فهو عاقل شجاع، فإذا زاد فهو متهور وإذا نقص فهو جبان. ولا نكتفي بهذا المنهج في حكمنا على أمور الدنيا بل نوسعه حتى يشمل أمور الدين، فمن عبد عبادتنا فهو من أهل التقوى والإيمان، ومن كان دونها فهو مقصّر، ومن زاد عليها فهو من المتنطعين.

وبما أننا جميعاً نرتفع وننخفض ونتقدم ونتأخر ونتغير بين وقت وبين عمر فإن هذا المقاييس يتغير باستمرار. ربما مرّ علينا زمان نصلي فيه الصلاة مع الجماعة ثم نقوم فنمشي دون أن نصلِي السنة، فنحس -في قراره أنفسنا- بالأسف على من يفوت الجمعة ونراه مقصراً، لكننا لا نرى أي بأس في الذين يقتصرُون على الرواتب دون التوافل. فإذا تفضل الله علينا وصرنا من المتنطعين نسياناً أننا لم نكن منهم ونظرنا إلى من لا يتتفقون بعين التعالي والزراية أو بعين الشفقة والرثاء.

* * *

نصل من تلك الملاحظة إلى قاعدة مهمة من قواعد الحسبة:

إياك أن تظن أن مقاييس الصواب في الدنيا ومقاييس الصلاح في الدين هو الحالة التي أنت عليها والتي أنت راض عنها، فربّ وقت مضى رضيَتْ فيه من نفسك ما لا ترضاه اليوم من غيرك من الناس.

لا تنظر إلى نفسك إذا نصحت وأمرت ونهيت، بل انظر إلى الحق المطلق والصواب المطلق، انظر إلى أصل الدين المتبين.
لعل رضيَّت من نفسك ذات يوم أن تلتزم بالفرائض وتنتهي عن المحرمات فحسب، فمن وجده كذلك فلا تُنْقَل عليه، لا تفرض عليه ما هو مندوب ولا تحرِّم عليه ما هو مكروه من الأعمال.

لا تكن أَغْيَر على دين الله من الله، فقد قبل الله من الناس العمل على قدر الوسع والهمة ورضيَّ منهم بما افترضه عليهم بلا طوع، ولو شاء لألزمهم بما يشاء من التوافل والزيادات.

أخرج البخاري عن طلحة بن عبيد الله أن أعرابياً جاء إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثائرَ الرأس فقال: يا رسول الله، أخبرني ماذا فرض الله عليَّ من الصلاة؟
فقال: الصلوات الخمس، إلا أن تطُوئ شيئاً.

فقال: أخبرني ما فرض الله عليَّ من الصيام؟
قال: شهر رمضان، إلا أن تطُوئ شيئاً.

فقال: أخبرني بما فرض الله عليَّ من الزكاة؟
فأخبره رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شرائع الإسلام.

قال: والذي أكرمك لا أطُوئ شيئاً ولا أنقص مما فرض الله عليَّ شيئاً.
فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أفلح إن صدق". أو: "دخل الجنة إن صدق".

هل يعني هذا أن نزهد في الخير ولا نبالي بتحسين تدين الناس ودفعهم إلى الفضائل والمكرمات؟
لا، ولو فعلنا إنا إذن مقصرون بحق الإسلام وبحق المسلمين.

تقول: وكيف تجمع بين هذا الكلام وما سبقه من كلام؟

الجواب هو جوهر الموضوع الذي نتكلم فيه والذي أنشأته هذه الأحاديث من أجله: إن الحسبة هي الأمر والنهي، والأمر لا يكون إلا بمعرفة واجب والنهي لا يكون إلا عن منكر محظوظ، أما إصلاح النفوس وتحسين الأخلاق ورفع سوية الدين في حياة الناس فمحمله الدعوة، والدعوة ليس فيها أمر ونهي إنما تقوم على الترغيب والإقناع، وهذا هو موضوع الحديث القادم إن شاء الله.

الزلزال السوري

المصادر: